

الإسلام وصحة العامة

الإشارة إلى نظرة الإسلام إلى الصحة، واهتمامه بها، ودلالاتها على ما يحفظ الصحة قد مرت عند الحديث عن آثار الإيمان بأركان الإيمان الستة، وعن الحديث عن أركان الإسلام، وما يستتبع ذلك من حفظ الصحة البدنية، والنفسية.

كما مر الحديث عن ذلك عند الحديث على أضرار المعاصي، وعن آثارها المدمرة على صحة الإنسان، ونفسيته، وأن تركها يحفظ على الإنسان صحته، وطُمأنينة نفسه؛ إلى غير ذلك مما مرت الإشارة إليه في أبواب سابقة.

والحديث ههنا إكمال لما مضى، وإلقاء للضوء على شيء من ذلك القليل. فلقد وردت في حفظ الصحة إشارات، وإرشادات في الكتاب العزيز، والسنة النبوية فمن ذلك ما يلي:

أولاً: أن الإسلام أرشد إلى الاقتصاد في المطعم والمشرب: ولا يخفى ما في ذلك من حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، فالتخلي عن الطعام والشراب جملة، أو ترك ما يحتاجه الجسم من ذلك سبب في الهلاك أو المرض.

كما أن الإسراف في المطاعم والمشارب من أعظم أسباب الأدواء المتنوعة. والاقتصاد في ذلك هو الصحة، والوقاية - بإذن الله - وإلى هذا المعنى أرشد قول الله - عز وجل -: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الأعراف: ٣١. قال بعض العلماء: « جمع الله بهذه الكلمات الطب كله »^(١).

١- تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص ٢١

وقريب مما جاء في الآية ما جاء في قول النبي ﷺ محذراً من البطنة: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن؛ بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمُّ صلبه؛ فإن كان لاحالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(١).

ثانياً: ورود كثيراً من الإشارات في حفظ الصحة: فمن ذلك أن الإسلام حرم الخمر، ولا يخفى ما في الخمر من أضرار صحية كثيرة، فهي تضعف القلب، وتفري الكلى، وتمزق الكبد إلى غير ذلك من أضرارها المتنوعة.

ومن ذلك: أن الإسلام حرم الفواحش من زنا ولواط، ولا يخفى ما فيهما من الأضرار الكثيرة، ومنها الأضرار الصحية التي عُرِفَتْ أكثر ما عُرِفَتْ في هذا العصر من: زهري، وسيلان، وهريس، وإيدز ونحوها.

ومن حفظ الإسلام للصحة أنه حرم لحم الخنزير، الذي عُرِفَ الآن أنه يُولَدُ في الجسم أدواء كثيرة، ومن أخصها الدودة الوحيدة، والشعرة الحلزونية، وعمَلُهما في الإنسان شديد، وكثيراً ما يكونان السبب في موته^(٢).

ومن الإشارات في هذا الصدد ما عُرِفَ من أسرار الوضوء، وأنه يمنع من أمراض الأسنان، والأنف، بل هو من أهم الموانع للسُّلِّ الرئوي؛ إذ قال بعض الأطباء: إن أهم طريق لهذا المرض الفتاك هو الأنف، وإن أنوفاً تُغَسَّلُ في اليوم خمس عشرة مرة لجديرة ألا تبقى فيها جراثيم هذا الداء الويل، ولذا كان هذا المرض في المسلمين قليلاً وفي الإفرنج كثيراً.

والسبب أن المسلمين يتوضؤون للصلاة خمس مرات في اليوم، وفي كل وضوء يغسل المسلم أنفه مرة أو مرتين أو ثلاثاً^(٣).

١- أخرجه أحمد ١٣٢/٤، والحاكم ١٢١/٤، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥) وصحيح الجامع (٥٦٧٤).

٢- انظر تعريف عام بدين الإسلام المسمى برسائل الإسلام ورسَل السلام ص ٣٨-٣٩.

٣- انظر تعريف عام بدين الإسلام ص ٤٥، راجع بق إلى الإسلام ص ٣٥-٣٦.

وسياتي مزيد بيان لأسرار الوضوء ، وفوائده.

ثالثاً: ورود كثير من النصوص في مشروعية التدابير والدلالة عليها: وقد مضى شيء من ذلك ، ومنه - أيضاً - قول الله - تعالى -: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة: ٣٢ .

ووجه الدلالة أن الله - تبارك وتعالى - امتدح من سعى في إحياء النفس وإنقاذها من الهلاك.

ومعلوم أن الطب ينتظم في كثير من صورته إنقاذ النفس المحرمة من الهلاك المحقق؛ فكثير من الأمراض التي تستلزم علاجاً ، أو حمية ، أو جراحة قد يكون المريض فيها مهدداً بالموت إذا لم يُقَمِّ بمدواته؛ فإذا قام الطب بوصف شيء من ذلك أو فعله ، وشفى المريض عُذَّ بإذن الله - منقذاً لتلك النفس المحرمة ، ودخل في قبيل من امتدحهم الله - عز وجل - في الآية السالفة.

وفي ذلك إشارة إلى علم الطب وفضله^(١).

رابعاً: ورود الدلالة على الجراحة الطبية: حيث دلت السنة المطهرة على جواز الجراحة الطبية ، ومشروعيتها ، ويظهر ذلك من خلال عدد من الأحاديث الشريفة ، ومنها ما ورد في شأن الحجامة ، ومن ذلك ما جاء في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ احتجم في رأسه^(٢).

وما جاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه عاد مريضاً ، ثم قال: «ألا تحتجم» ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فيها شفاء»^(٣).

١ - انظر أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها د. محمد المختار الشنقيطي ص ٨٥-٨٦

٢ - أخرجه البخاري (٥٣٧٣)

٣ - أخرجه البخاري (٥٣٧٢)

ووجه الدلالة من الحديثين أنها نصت على مشروعية التداوي بالحجامة، والحجامة تقوم على شق موضع معين من الجسم وشَرْطُهُ، ومَصُّ الدم الفاسد، واستخراجه؛ فتعد أصلاً في جواز شق البدن، واستخراج الشيء الفاسد من داخله سواء كان عضواً، أو كيساً مائياً، أو ورماً أو غير ذلك^(١).

والحجامة في العصر الحديث تعد نوعاً من الجراحة الطبية الصغرى؛ حيث يجري استعمالها في علاج عدد من الأمراض، والالتهابات^(٢).

ويدل على ذلك ما جاء في حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع منه عرقاً، ثم كواه عليه^(٣).

ووجه الدلالة أن النبي ﷺ أقر الطبيب على قطع العرق، وكَيِّه.

وقطع العرق ضرب من العلاج الجراحي، وهو مستخدم في الجراحة الطبية الحديثة، حيث يتم قطع مواضع من العرق في حال انسدادها، أو وجود آفة تستدعي قطع جزء منها^(٤).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا السياق^(٥).

خامساً: أن النبي ﷺ فتح العقول لمعرفة الطب، ومزيد التطور فيه؛ ومن أجله الأدلة على ذلك قوله ﷺ: «ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاءً»^(٦). ومعنى أنزل: أي قدر.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «وعموم هذا الحديث يقتضي أن جميع الأمراض الباطنة لها أدوية تقاومها: تدفع مالم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية أو تُخَفِّفه.

١- انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٨٨

٢- انظر الجراحة الصغرى د. رضوان بابولي، ود. أنطوان دولي ص ٢٤

٣- رواء مسلم (٢٢٠٧)

٤- انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٨٨

٥- انظر كتب الطب في الصباح، والسنن، وغيرهما: فيها أحاديث كثيرة من هذا القبيل.

٦- أخرجه البخاري (٥٣٥٤).

وفي هذا الترغيب في تعليم طب الأبدان، كما يتعلم طب القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة.

وجميع أصول الطب وتفصيله شرح لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدوية لها أدوية، فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها^(١).

ثم إن في الحديث دلالة واضحة إلى أنه لا يأس من وجود علاج لأي مرض؛ طالما أن مسبب الأسباب وهو الله - تعالى - لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً.

ولقد كان كثير من الناس يظن أن بعض الأمراض ليس لها دواء، وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علم - عرفوا مصداق هذا الحديث^(٢).

سادساً: ما كان عليه العلماء المسلمون من الإسهام في تطوير الطب: فلقد عاشت أوروبا في العصور الوسطى سنوات طويلة في ظلام دامس من الجهل، وتعد هذه الفترة فترة ركود حضاري بالنسبة لها.

وفي الوقت نفسه كانت البلاد الإسلامية تعيش حياة علمية مزدهرة، حتى أصبحت في ذلك الحين محط الرحل لطلاب العلم والمعرفة الذين يقصدونها، خاصة من البلاد الأوروبية؛ طمعاً في الحصول على المعارف والفنون التي نبغ المسلمون فيها نبوغاً عظيماً.

ولقد تفجرت ينابيع المعرفة على أيدي جهابذة العلماء المسلمين في شتى العلوم والمعارف، حتى شمل ذلك علوم الطب، والحساب، والفلك، وغيرها من العلوم الأخرى.

١ - بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٢١٣-٢١٤

٢ - انظر بهجة قلوب الأبرار ص ٢١٤

وأمسكت تلك الأيدي الأمانة بزماء الحناسة العلمية، وقادتها بعقولها الفذة التي صقلتها روحانية الكتاب والسنة، فسمت بها إلى ذروة المجد والعلواء^(١).
يقول الشيخ الدكتور محمد المختار الشنقيطي - حفظه الله -: «وكان من ضمن ما نبغ به المسلمون في تلك العصور المزهرة علم الطب على اختلاف تخصصاته، والتي من ضمنها الجراحة الطبية.

فقد كانت الجراحة الطبية في العصور الإسلامية الأولى تعتبر صنعة ممتنة، وكان علماء الطب المسلمين من الأوائل يترفعون عن القيام بها وأدائها، وكانوا يسمونها «عمل اليد» وكانت آنذاك من مهمة الحجامين الذين يقومون بالكلي، والفصد والحجامة، وبتر الأعضاء تحت إشراف الأطباء وإرشاداتهم.

ثم لم تمض مدة حتى نبغ علماء الطب المسلمون في تطوير الجراحة الطبية والإسهام في تقدمها حتى وصلت إلى درجة عالية من الدقة والمهارة، وذلك بفضل الله - تعالى- ثم بفضل جهودهم المخلصة التي تمثلت في جوانب عديدة ساعدت على الوصول إلى هذه الغاية»^(٢).

إلى أن قال - حفظه الله -: «فقد كانوا أول من أفرد علم الجراحة الطبية بالكتابة عنه في مواضع مخصوصة من كتبهم الطبية، ثم بالتأليف المستقل الذي يجمع شتاته، ويعتني بصياغة في أسلوب علمي بديع.

وقد اعتنوا في تلك المؤلفات ببيان عدد من أنواع الجراحة الطبية التي لم يسبقوا إلى معرفتها، وقاموا بوصف مراحلها في كتبهم لأول مرة في التاريخ، ومن تلك الأنواع التي بينها ما يلي:

١ - عملية تفتيت الحصى الموجود في المثانة.

١ - انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٠

٢ - أحكام الجراحة الطبية ص ٥٠-٥١.

۲- عملية تجبير الكسور الموجودة في الأنف.

۳- عملية فتح القصبه الهوائية

۴- عملية استئصال اللوزتين.

۵- عملية فتح الخراج الموجود في اللهاة.

۶- عملية قطع اللحم النابت في الأذن.

۷- عملية ثقب الأذن المسدودة.

ومع اكتشافهم لهذه الأنواع، ووصفهم لها لأول مرة في التاريخ نجدهم -أيضاً- قد تكلموا على بعض المعلومات المهمة جداً في علم الجراحة، وكانوا أول من نبه عليها، ومن تلك المعلومات تفريقهم بين الأورام الخبيثة -السرطانية- والزوائد اللحمية، حيث وضعوا بعض الأمارات والعلامات التي يمكن للطبيب أن يستهدي بها لمعرفة نوعية الورم هل هو خبيث فيتجنبه، أم هو من الزوائد اللحمية التي يمكن استئصالها ومداوتها بالجراحة»^(١).

ثم ذكر الشيخ الدكتور محمد المختار الشنقيطي -حفظه الله- نماذج عديدة من الأطباء المسلمين الذين كانت لهم الريادة والسبق في كثير من مجالات الطب كعبد الملك بن زهر^(٢)، والرازي^(٣).

ثم أطل الحديث عن الزهراوي، وجهوده في علم الطب، والجراحة، والتأليف في ذلك، واستفادة علماء الطب الجراحين الأوروبيين وغيرهم من الزهراوي على مدى القرون.

١- انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥١-٥٢

٢- عبد الملك بن زهر ولد ما بين عامي ٤٨٤ و ٤٨٧ وتوفي عام ٥٥٧، ويعد أول طبيب جراح قام بوصف جراحة الجهاز التنفسي، وذلك في كتابه الفريد في الطب «التيسير في المداواة والتدبير». انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٣.

٣- الرازي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ولد في الري سنة ٢٥٤ وتوفي في بغداد سنة ٣١١، وهو أول من تكلم عن الفوارق التي يميز بها بين نوعي النزيف: النزيف الشرياني والوريدي، كما تكلم على جراحة الكسور والجباثر؛ فجاء بآراء في غاية الصحة، كما نبه على الطرق التي يمكن بها - طئها إيقاف النزيف الشرياني، والسيطرة عليه. انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٣.

☆ بحق نفسك، ولا تعبد على الناس، واعتبر انهم عليك لالك، وليس معك الا الله ولا تغتر باخوان الرخاء. ☆

ثم تحدث عن مقالة للزهرائي أفرد فيها الحديث عن علم الجراحة، وجاء فيها بالعجيب من الجراحات المبتكرة التي لم يَسْبِقْ أحدٌ إلى فعلها، والكتابة عنها. ثم تحدث عن جهود الزهرائي في جراحة العيون، والأنف، والأذن، والحنجرة، والفم، الأسنان، وعظام الفكوك، وأنه أول من وصف ما يسمى بعملية تقطيت الحصى.

ثم تحدث عن جهود الزهرائي في علاج الفتوق، وما يعرف بتضخم الغدة الدرقية^(١).

ثم ختم الشيخ الشنقيطي حديثه عن الزهرائي وجهوده في الطب بذكر بعض ما قيل عنه، ومن ذلك أنه أورد ما قاله عن الدكتور سيمون حايك، حيث قال: «غني دي شولياك ١٢٦٧-١٣٠٠م تأثر بالزهرائي، وبهذا الجراح الفرنسي بتدئ سلسلة طويلة من الجراحين الفرنسيين وغيرهم.

وقد أثر تأثيراً كبيراً في الجراحين الذين جاؤوا من بعده؛ فقد أُلْقِعَ عن استعمال المبيدات، وعاد إلى استعمال المراهم، والزيت، والقتيل، مقتفياً بذلك أثر الزهرائي»^(٢).

فانظر إلى هذا النموذج وهو الزهرائي، وانظر إلى آثاره مع أنه مات قبل ما يزيد عن ألف سنة، حيث مات في الأندلس بعد الأربعمئة الهجرية^(٣).

سابعاً: أن الفقهاء عَدُّوا حفظ الصحة أحد مقاصد الشريعة؛ ذلك أن تشريعات الإسلام كلها تُؤَلِّي هذا المقصد - حفظ البدن وصحته - مكانة خاصة، بل تعده ركناً أساساً.

١- انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٤-٦٥

٢- أحكام الجراحة الطبية ص ٦٥

٣- انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٢٠٨-٢٠٩ وأحكام الجراحة الطبية ص ٥٥

ولهذا كان من أعظم الأدعية النبوية سؤال الله العافية، بل إن النبي ﷺ جعل العافية تلي نعمة الإيمان في الأهمية، قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية»^(١).

ومن دعائه ﷺ «اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت»^(٢).

يقول الطبيب الدكتور محمد نزار الدقر: «وتتطابق نظرة الإسلام للصحة مع المفهوم الحديث؛ فالصحة في مفهوم الطب الحديث ليست مجرد الخلو من العاهات أو الأمراض، بل أن يتمتع الفرد برصيد من القوة في وظائف أعضائه تجعله يتحمل ما قد يتعرض له من مسببات كثيرة من الأمراض.

وهذا تطابقٌ مُعْجِزٌ حقاً مع ما قال به نبي الرحمة محمد ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلي من المؤمن الضعيف»^{(٣) (٤)}.

ثامناً: أن الإسلام عني بصحة الإنسان قبل أن يتخلق: إذ أرشد إلى حسن انتقاء شريك الحياة زوجاً أو زوجة؛ حتى تخرج منهما ذرية سليمة. ومصدقه قول النبي ﷺ: «تخيروا لنطفكم»^(٥).

كما أن الإسلام حث على الرضاعة: حيث أرشد إليها، وحث على إطالة مدتها قدر الإمكان؛ ليحصل الطفل على عناصر المناعة الطبيعية اللازمة التي لا تعطيه الرضاعة الصناعية.

١ - أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٥٥٨): «حسن صحيح».

٢ - أخرجه أبو داود (٥٠٩٠) قال عنه الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩٠): «حسن الإسناد».

٣ - أخرجه مسلم (٢٦٦٤)

٤ - روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٢/١.

٥ - أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨) قال عنه الألباني في الصحيحة (١٠٦٧): «صحيح».

قال الله - عز وجل - ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(١)
البقرة: ٢٣٣.

تاسعاً: تقرير بعض الأمور العلاجية: حيث وجه الإسلام الأمة لأمر تنفعها
بوحى السماء كما قال النبي ﷺ: «عليكم بهذه الحبة السوداء؛ فإن فيها شفاءً من
كل داء»^(٢).

ثم إن في إرشادات القرآن الكريم توجيهه إلى الطب الوقائي الذي يعمل على
حماية صحة الفرد، ويحافظ على صحة المجتمع كله، قال الله - تعالى -:
﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥ .

وفي الإسلام نظام صحي عالمي، يكاد يكون أول نظام في ذلك، ألا وهو إقرار
الحجر الصحي عند حدوث الأوبئة كالطاعون، والكوليرا؛ حيث وضع له قواعد
راسخة أقرها الطب الحديث، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ قوله: «إن هذا
الطاعون رجز، وبقية من عذاب عُدْبِه من كان قبلكم؛ فإذا وقع بأرض وأنتم بها
فلا تخرجوا منها؛ فراراً منه، وإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوا عليه»^(٣).

يقول الدكتور محمد الدقر معلقاً على هذا الحديث: «والذي يعرف أهمية
الحجر الصحي في حياة الأمم يعرف عظمة ما جاء النظام الصحي الإسلامي منذ
قرون»^(٤).

عاشراً: أن في آداب الطعام في الإسلام إشارات كثيرة لحفظ الصحة: يقول
الدكتور محمد الدقر: «وآداب الطعام مفخرة من مفاخر الهدى النبوي العظيم،

١- انظر روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٣/١ .

٢- انظر روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٣/١ .

٣- البخاري (٥٣٩٨) ومسلم (٢٢١٨) وهذا لفظ مسلم.

٤- روائع الطب الإسلامي ٣/١

حرص من خلالها على أن يتناول المسلم طعاماً نظيفاً خالياً من أي تلوث، فأمر بالأكل باليد اليمنى، وأمر بتغسيل اليد قبل الطعام وبعده، وأمر بتجنب الإسراف في الأكل، وتجنب إدخال الطعام على الطعام».

إلى أن قال: « وجعل - سبحانه - من أهم أهداف البعثة المحمدية أن يحل لأمته الطيب النافع، ويحرم عليها الخبيث الضار، وقال - تعالى - معدداً أهداف بعثة محمد ﷺ: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ الأعراف: ١٥٧^(١). ويواصل الدكتور الدقر حديثه فيقول: «هذا وإن تحريم الخمر والتدخين والمخدرات يمكن اعتباره أهم منجزات شريعتنا الغراء في مجال الطب الوقائي؛ إذ إن التزام المجتمع باجتنب هذه الخبائث يقيه من الوقوع في برائث العديد من الأمراض المهلكة، ويحمي الأجنة من التشوهات، ويبقي الأفراد من الحوادث»^(٢).

حادي عشر: أن الشريعة الإسلامية وضعت القواعد للوقاية من الحوادث التي تؤدي إلى إزهاق الأرواح، أو إلحاق الأضرار بالناس، وذلك ضمن أوامر ونواهي محددة واضحة تقود من يأخذ بها إلى السلامة، وتتنأى به عن العطب، فمن ذلك أن النبي ﷺ نهى أن يبيت المسافر في طريق الناس، فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: « وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق؛ فإنها مأوى الهوام بالليل ». وفي رواية « وإذا عرستم بالليل فلجتنبوا الطريق؛ فإنها طريق الدواب، ومأوى الهوام »^(٣).

١ - روائع الطب الإسلامي ٤/١

٢ - روائع الطب الإسلامي ٤/١

٣ - أخرجه مسلم (١٩٢٦).